الإمام القرطبي المفسر: سيرته من تآليفه

للدكتور محمد بن شريفة *

كان القرن السابع قرن امتحان للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فقد خرب التترجل الممالك الإسلامية في المشرق وكان دخولهم بغداد واستباحتهم إياها سنة 656 هـ نكبة نكراء هزت المسلمين في كل مكان، " فانتشر الخوف وعظم الكرب وعم الرعب وكثر الحزن بانتشار التتر في البلاد وبقي الناس حيارى سكارى بغير خليفة ولا إمام"[1].

كما تغلب الروم على معظم البلدان والمدن الأندلسية، وقد كان ضياع قرطبة عاصمة الخلافة الأموية والحجابة العامرية في سنة 633هـ من أعظم الخطوب التي حلت بالمسلمين في الأندلس، وصف أحد المؤرخين كيف حصل ذلك فقال : "نزل ادفونش[2] -أخزاه الله- بعساكره الذميمة على مدينة قرطبة فحاصرها وضيق عليها وأقبلت نحوه الحشود من البلاد القاصية والدانية إلى أن ملكها وأخرج المسلمين منها، وهذا أجل مصاب وأعظم، ولكن الرضى بما قدره الله

(*) عضو أكاديمية المملكة المغربية.

(1) التذكرة للقرطبي 2 : 369، وانظر كلام ابن دحية والقرطبي في ملاحق هذه الترجمة.

(2) اعتاد المؤرخون الأندلسيون والمغاربة أن يطلقوا هذا الاسم على ملوك قشتالة وغيرها من الممالك المسيحية في إسبانيا، والمقصود هنا فرناند الثالث المدعو أيضا بالقديس

أحكم، إذ هي أم المدائن، وقرة عين الوارد والقاطن، فلقد حل بالأندلس من الروم ما يلين له القلب القاسي، وتنهد له الجبال الرواسي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم."[3].

وقد جاء سقوط قرطبة نتيجة حتمية وقدرا مقدورا بعد أحداث أنذرت به، وذلك أن أمور الموحدين اضطربت في الأندلس والمغرب في سنة 620هـ[4] وما تلاها، فقد تفرقت كلمتهم وضعف حكمهم، وظهر الثوار في كل مكان، وقام أهل المدن الأندلسية على الموحدين وقتلوهم، وكان من هؤلاء السيد أبو الربيع الذي تركه المامون ابن عمه واليا على قرطبة لما ترك الأندلس بعد بيعته وتوجهه إلى المغرب سنة 624هـ[5].

وقد بقيت قرطبة بعد هذا التاريخ تتأرجح بين ابن هود وابن الأحمر، فقد دخلت في طاعة ابن هود ثم خرجت عليه ورجعت إلى طاعة ابن هود[6]، ولكن هذا تخلى عنها عندما حاصرها القشتاليون بقيادة ملكهم فرناند الثالث، واستمر حصارهم لقرطبة عدة أشهر، وقد دافع القرطبيون عن مدينتهم ولكن لما طال عليهم الحصار اضطروا إلى الاستسلام[7].

في هذه الفترة الصعبة كانت نشأة أبي عبد الله القرطبي صاحب التفسير المشهور، فمن هو ؟

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي[8].

(3) البيان المغرب – قسم الموحدين – : 31.

(4) نفسه : 268 وما بعدها.

(5) نفسه : 292.

(6) نفسه : 295-296.

(7) نفسه : 331.

(8) له ترجمة في الذيل والتكملة 5 : 585 والوافي بالوفيات 2 : 122 والديباج المذهب : 317 والمقفي 5: 147 وطبقات المفسرين : 28 ونفح الطيب 2 : 210-211.

لم يذكر الذين ترجموا له مكان ولادته ولا تاريخها، ولا شك أنه ولد بقرطبة بلد أسلافه، ونقدر أنه ولد في أول القرن السابع الهجري.

ونسب القرطبي صريح في أنه ينتمي إلى الخزرج من الأنصار، وقد كان هذا النسب كثيرا في الأندلس[9]، ويبدو أنه نشأ في أسرة فقيرة، يدل على هذا أنه كان في شبابه يقوم بأعمال متواضعة كنقل التراب إلى الفخارين[10] خارج مدينة قرطبة، وقد ذكر هذا في كتاب التذكرة فقال :

"ولقد كنت في زمن الشباب - أنا وغيري - ننقل التراب على الدواب من مقبرة عندنا تسمى بمقبرة اليهود[11] خارج قرطبة - وقد اختلط بعظام من هلك ولحومهم وشعورهم وأبشارهم - إلى الذين يصنعون القرمد للسقوف"[12].

ونفهم من هذا الكلام أنه كان يشتغل ويتعلم شأنه في ذلك شأن أولاد الفقراء.

وقد قرأ في بلده قرطبة على شيخين مشهورين : أولهما أبو جعفر أحمد بن أبي حجة[13]، قال ابن عبد الملك : "تلا بالسبع في بلده على أبي جعفر ابن أبي حجة[14]".

وهذا الشيخ كان من كبار المقرئين في وقته العارفين بعلم القراءات وصنعة التجويد وكان أيضا نحويا بارعا ومحدثا حافظا، وله مصنفات في القراءات والنحو والحديث[15].

---

(9) جمهرة ابن حزم : 364 - 365 ونفح الطيب 294:1.

(10) جمع فخار وهو صانع الأواني والأشياء الطينية، ويفهم من هذا أن حي الفخارين كان خارج أسوار قرطبة.

(11) من أبواب قرطبة باب اليهود ولعله كان يؤدي إلى مقبرة اليهود المذكورة هنا.

(12) التذكرة 37:1.

(13) انظر ترجمته في الذيل والتكملة 484:1-485

(14) الذيل والتكملة 585:5.

(15) نفسه 484:1-485.

أما الشيخ الثاني فهو أبو عامر يحيى بن ربيع القرطبي، قال ابن عبد الملك أيضا : "وروى عن أبي عامر بن ربيع، وأكثر عنه"[16].

وأبو عامر هذا سليل أسرة علمية كبيرة في قرطبة، ولي القضاء في جهات من الأندلس، وأقرأ الفقه وأصوله وعلم الكلام بقرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة[17].

وقد عرف هذا الشيخ - الذي كان رأس المتكلمين في زمانه - بخصومته لابن رشد الحفيد وبتآليفه في الرد عليه[18].

وثمة شيخ قرطبي آخر ذكره المقريزي، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن حفص اليحصبي[19]، ترجم له ابن عبد الملك ورفع نسبه إلى جده الداخل إلى الأندلس، وقال إنه أخذ الحديث عن أبيه وابن بشكوال وابن المناصف وابن غالب وابن مغيث وابن خير وابن كوزانة وغيرهم، ووصفه بأنه "كان محدثا ضابطا لما ينقله، ثقة فيما يرويه، زاهدا ورعا متقشفا، مشكور الأحوال، مشهور الفضل، معروفا بالصلاح والخير ومتانة الدين والاقتداء بسني الآثار"[20].

وقد اقتصر ابن عبد الملك على الشيخين الأولين، وهما وحدهما الشيخان الأندلسيان المذكوران فيما وقفنا عليه من مصنفاته، فقد ذكر القرطبي الشيخ الأول في الجامع عند تفسير قوله تعالى : ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ قال : "وسمعت شيخنا الأستاذ المقريء أبا جعفر القرطبي يقول : فغوى : ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا"[21].

وذكر في الجامع أيضا رأيا في صلاة الخوف وقال : "وإليه

---

(16) نفسه 5:585.

(17) انظر ترجمته في التكملة رقم 2068 وبرنامج شيوخ الرعيني : 72.

(18) انظر برنامج شيوخ الرعيني : 73.

(19) المقفي 5 : 147.

(20) الذيل والتكملة 5 : 318.

(21) الجامع 7 : 257.

كان يذهب شيخنا الأستاذ أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بابن أبي حجة"[22].

وروى عنه في التذكرة عند شرح قول الرسول ﷺ في حديث أشراط الساعة : (وأن تلد الأمة ربتها) قال : " سمعت شيخنا الأستاذ المحدث النحوي المقرئ أبا جعفر أحمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بابن أبي حجة يقوله غير مرة، وهو الإخبار عن استيلاء الكفار على بلاد المسلمين كما في هذه الأزمان التي قد استولى فيها العدو على بلاد الأندلس وخراسان وغيرهما من البلدان، فتسبى المرأة وهي حبلى أو ولدها صغير فيفرق بينهما فيكبر الولد فربما يجتمعان ويتزوجها، كما وقع من ذلك كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون" [23].

وأما الشيخ الثاني فقد أسند عنه ثلاث مرات في التذكرة، وذلك في حديث كرز بن علقمة الخزاعي قال : "سأل رجل النبي ﷺ هل للإسلام من منتهى ؟ "الحديث، فقد أتى القرطبي بسند الحافظ أبي الخطاب ابن دحية في هذا الحديث ثم قال : "وقد حدثني بهذا السند المذكور الفقيه القاضي أبو عامر يحيى بن عبد الرحمان إجازة عن أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال..."[24].

وأسند عنه أيضا في خبر حول وقعة صفين، قال : «أخبرنا شيخنا القاضي لسان المتكلمين أبو عامر يحيى ابن الشيخ الفقيه الإمام أبي الحسين بن عبد الرحمان بن ربيع الأشعري إجازة عن شيخه المحدث الثقة المؤرخ أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال»[25].

---

(22) نفسه 5 : 370.

(23) التذكرة 2 : 376.

(24) نفسه 2 : 254.

(25) نفسه 2 : 269.

وأسند عنه مرة ثالثة في حديث ذكره الحافظ ابن السكن في مقتل سيدنا الحسين رضي الله عنه، قال القرطبي : " أنبأناه إجازة الشيخ الفقيه القاضي أبو عامر عن أبي القاسم ابن بشكوال"[26].

وذكره مرة في الجامع عند تفسير قوله تعالى : ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا..﴾، وروى عنه خبر أبي الدحداح سندا ومتنا قال : "أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام المحدث القاضي أبو عامر يحيى بن أحمد بن ربيع الأشعري نسبا ومذهبا بقرطبة – أعادها الله – في ربيع الآخر عام ثمانية وعشرين وستمائة قراءة مني عليه.."[27].

وقبل التاريخ المذكور هنا بسنة واحدة استشهد والد القرطبي، وقد تحدث عن استشهاده عند تفسيره قول الله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء﴾.

قال في المسألة الخامسة من المسائل التي ذكرها في تفسير هذه الآية : "العدو إذا صبح قوما في منزلهم ولم يعلموا به فقتل أحدا منهم، فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترك أو حكم سائر الموتى ؟

وهذه المسألة نزلت عندنا بقرطبة –أعادها الله – أغار العدو عليها – قصمه الله – صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة[28] والناس في أجرانهم على غفلة فقتل وأسر، وكان في جملة من قتل والدي رحمه الله. فسألت شيخنا المقرىء الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بابن أبي حجة فقال : غسله وصل عليه ؛ فإن أباك لم يقتل في المعترك بين الصفين. ثم سألت شيخنا أبا عامر ابن عبدالرحمان بن أحمد بن ربيع عن أبي فقال : إن حكمه حكم

(26) نفسه 2 : 291.

(27) الجامع 3 : 237.

(28) كان هذا بعد خروج أهل الأندلس عن طاعة الموحدين. انظر أحداث السنة المذكورة في البيان المغرب – قسم الموحدين – : 289.

القتلى في المعترك، ثم سألت قاضي الجماعة أبا الحسن علي بن قطرال[29] وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا : غسله وكفنه وصل عليه، ففعلت. ثم بعد ذلك وقفت على المسألة في التبصرة لأبي الحسن اللخمي وغيرها ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسلته، وكنت دفنته بدمه في ثيابه"[30].

وهذه الغارة التي استشهد فيها والد القرطبي هي إحدى الغارات التي كان يشنها القشتاليون على قرطبة قبل سقوطها في أيديهم سنة 633هـ كما سبق ذكره.

كان القرطبي في الثلاثين أو أزيد عند وقوع هذا الحدث الجلل، ولسنا نعرف هل كان حينئذ موجودا في قرطبة أم لا. وقد روى في التذكرة خبرا يدل على محنة المسلمين عند خروجهم من قرطبة، ثم قال – بعد أن نص على كثرة النساء وقلة الرجال في الأندلس بسبب الحروب – :

" ولقد أخبرني صاحبنا أبو القاسم رحمه الله أخو شيخنا أبي العباس أحمد بن عمر رحمه الله أنه ربط نحوا من خمسين امرأة واحدة بعد أخرى في حبل واحد، مخافة سبي العدو لهم حتى خرجوا من قرطبة أعادها الله"[31].

والذي يظهر من كلام آخر ذكره في الجامع عند تفسير قوله تعالى : ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يومنون بالآخرة حجابا مستورا﴾ أنه كان ممن خرجوا هاربين من العدو، قال : " ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منتور[32] من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه،

(29) انظر ترجمته في الذيل والتكملة 8 : 154-159 وفي ترجمته أنه ولي القضاء في قرطبة.

(30) الجامع 4 : 272.

(31) التذكرة 2 : 371.

(32) منتور بلد ينسب إليه بعض الأعلام وهو قريب من قرطبة.

فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان، وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر : هذا ديبله[33] - يعنون شيطانا - وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك"[34].

وإذا كان شباب القرطبي وإيمانه قد ساعداه على الإفلات من الأسر أو القتل فإن ثمة آخرين من الشيوخ والعجزة لم ينجوا من ذلك.

وقد كان شيخ القرطبي الأول وهو أبو جعفر ابن أبي حجة ممن امتحنوا امتحانا شديدا بعد خروجه من قرطبة، فقد لجأ إلى إشبيلية، ولكن توقعه أن يحصل فيها ما حصل في قرطبة جعله يوثر التحول إلى سبتة، قال ابن عبد الملك : " وركب في جرادة[35] فامتحن هو وأهله وأولاده بالأسر، واحتمل إلى منورقة[36] أو إحدى جهاتها، ففداه أهلها، وهو قد أشفى من الهلاك لما لقيه من شدة التنكيل والتعذيب، نفعه الله، فمكث بمنورقه نحو ثلاثة أيام وتوفي سنة 643، وقيل إنه توفي على ظهر البحر قبل وصوله إلى منورقة، ومولده سنة 526"[37].

وقد كان حظ شيخه أبي عامر الأشعري أحسن من حظ الشيخ المذكور، ولكن رزية هذا الأشعري وأخويه فيما ضاع لهم من الكتب مع مفارقة المال والوطن لم تكن أمرا هينا[38]. لقد أورد القرطبي في التذكرة حديثا جفريا مرويا عن معاوية بن أبي سفيان، وفيه أن

(33) هي الكلمة الاسبانية Diablo ولعل ترجمة القرطبي لها تشير إلى إلمامه باللغة القشتالية أو كلمات منها.

(34) الجامع 10 : 270.

(35) نوع من المراكب البحرية الصغيرة.

(36) هي واحدة من الجزائر التي تسمى في نصوصنا بالجزائر الشرقية وتعرف اليوم بجزر البليار.

(37) الذيل والتكملة 1 : 485.

(38) المرقبة العليا : 118.

الأندلس ستفتح، ولكن سيتغلب عليها أهل الكفر فيأخذون الأموال، ويسبون النساء والأولاد، ويهتكون الأستار، ويخربون الديار، ويجلو أكثر الناس عن الأندلس ولا يبقى فيها إلا القليل، ثم عقب على هذا بقوله : "قلت : كل ما وقع في حديث معاوية هذا فقد شاهدناه بتلك البلاد وعاينا معظمه" [39].

وأشار في مكان آخر من التذكرة إلى ما روي عن أبي سعيد الخدري من أنه إذا كانت سنة تسع وتسعين وخمسمائة يخرج المهدي، وقد عقب على هذا الحديث بقوله : " وقد كان سنة تسع وتسعين وخمسمائة ولم يكن شيء من ذلك، بل كان بالأندلس تلك السنة وقعة الأرْك التي أهلك الله فيها الروم.

ولم يزل المسلمون من تلك الوقعة يرجعون القهقرى إلى أن استولى عليهم العدو وغلبهم بالفتن الواقعة بينهم، والتفصيل يطول، ولم يبق الآن من الأندلس إلا اليسير، فنعوذ بالله من الفتن والخذلان، والمخالفة والعصيان، وكثرة الظلم والفساد والعدوان" [40]. وربما عرفنا أشياء مفيدة لو أنه فصل القول وأطال الكلام، وقد وجدناه يشير إلى بعض أسباب الكارثة، وذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾.

قال : "والمعنى : عسى أن تكرهو ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ومن مات مات شهيدا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم.

قلت : هذا صحيح لاغبار عليه كما اتفق في بلاد الأندلس تركوا الجهاد وجبنوا على القتال وأكثروا من الفرار فاستولى العدو على

(39) التذكرة 2 : 349.

(40) المصدر نفسه 2 : 359.

البلاد، وأي بلاد ! وأسر وقتل وسبى واسترق، ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته" [41].

وكرر هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى : ﴿أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ فقد ذكر الخلاف في الآية هل هي عامة في المسلمين والكفار أم أنها في الكفار خاصة، ثم أورد قول الحسن البصري إنها في أهل الصلاة، وقال : "قلت وهو الصحيح، فإنه المشاهد في الوجود، فقد لبسنا العدو في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا أموال بعض، نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن".

يدل كل هذا على أن الإمام القرطبي لم يخرج من الأندلس إلا بعد سقوط قرطبة وجهاتها. ولسنا ندري هل خرج وحيدا أم كان معه بعض أهله، وهو لا يتحدث فيما وقفنا عليه عن أهل أو أولاد، ولهذا لا نعرف هل كان متزوجا أم لا ؟ وهل كان له أولاد أم لا ؟

ولما كانت أرض الكنانة مهوى أفئدة الأندلسيين، فقد قصدها يومئذ عدد من الذين أجبروا على الجلاء عن الأندلس، وكان منهم بعض القرطبيين، ومن أشهرهم أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي[42] مؤلف كتاب "المفهم، في شرح مسلم" [43]، وهو من الشيوخ الذين أخذ عنهم أبو عبد الله في مصر، قال ابن عبد الملك : "ورحل إلى المشرق، وروى هنالك عن أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي" [44].

---

(41) الجامع 3 : 39.

(42) ترجمته في الذيل والتكملة 1 : 348 والديباج المذهب : 68.

(43) قال فيه أبو العباس المقري : "ومن تصانيفه رحمه الله تعالى : "المفهم، في شرح مسلم"، وهو من أجل الكتب، ويكفيه شرفا اعتماد الإمام النووي رحمه الله تعالى عليه في كثير من المواضع وفيه أشياء حسنة مفيدة " نفح الطيب. وقد طبع الموجود من "المفهم" في دار الكتاب المصري واللبناني وغيرها.

(44) الذيل والتكملة 5 : 545.

وقد جمع بين الرجلين النسب والبلدية والاشتراك في المشيخة، فقد اشتركا في الأخذ عن أبي جعفر بن أبي حجة، وهذا يستفاد من كلام القرطبي في التذكرة، إذ يقول : "وقد سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي بثغر الاسكندرية يقول : حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد بن محمد القرطبي[45] بقرطبة، وقد احتضر فقيل له : قل لا إله إلا الله فكان يقول : لا. لا. فلما أفاق ذكرنا له ذلك، فقال : أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي يقول أحدهما : مت يهوديا فإنه خير الأديان، والآخر يقول مت نصرانيا فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما : لا لا ! ألي تقولان هذا وقد كتبت بيدي في كتاب الترمذي والنسائي عن النبي ﷺ : "إن الشيطان يأتي أحدكم عند موته فيقول : مت يهوديا ! مت نصرانيا !" فكان الجواب لهما لا لكما.

وقد عقب على الحديث الوارد في آخر الخبر بما يلي : "قلت : قد تصفحت كتاب الترمذي أبي عيسى وسمعت جميعه فلم أقف على هذا الحديث فيه، فإن كان في بعض النسخ فالله أعلم.

وأما كتاب النسائي فسمعت بعضه وكان عندي كثير منه فلم أقف عليه، وهو نسخ، فينبغي أن يكون في بعضها. والله أعلم" [46].

لا نعرف تاريخ رحلة الإمام القرطبي إلى مصر كما أننا لا نعرف الطريق الذي سلكه في رحلته، وقد يكون رحل في رفقة شيخه أبي العباس أحمد بن عمر المذكور آنفا. والمعروف أن هذا نزل الإسكندرية واستقر بها إلى أن مات فيها سنة 656 هـ [47].

---

(45) يفهم من كلام القرطبي أن أخا شيخه كان من أهل العلم والرواية ولكننا لم نتمكن الآن من الوقوف على ترجمته.

(46) التذكرة 1 : 48.

(47) الذيل والتكملة 1 : 348 (حاشية 2).

والإمام القرطبي يروي كثيرا عن هذا الشيخ وينقل عن كتابه المفهم في شرح صحيح مسلم، وذكره يتردد في الجامع وفي التذكرة. وقد روى عنه مرة حديثا في فضل سورة تبارك عن أبي محمد بن عبد الله ابن العربي[48] ولد أخي الشيخ الإمام أبي بكر عن أبي محمد يونس عن أبي الوقت، ثم قال : "وأخبرناه عاليا الشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري التلمساني بثغر الاسكندرية عن شيخه الشريف أبي محمد يونس عن أبي الوقت" [49] وهذا الشيخ التلمساني هاجر كمؤلف المفهم إلى الاسكندرية وأقام بها إلى أن توفي سنة 656 هـ وهي السنة التي توفي فيها مؤلف المفهم [50].

ومن الشيوخ الذين سمع منهم في مصر أبو محمد عبد الوهاب ابن ظافر بن علي بن فتوح بن أبي الحسن القرشي [51] وأبو محمد عبد المعطي بن محمد بن عبد المعطي اللخمي الاسكندراني [52] وأبو علي الحسن بن محمد بن محمد بن عمروك البكري [53] وأبو القاسم عبد الله بن خلف بن معزوز الكومي التلمساني [54] وأبو الحسن بن هبة الله الشافعي [55]. وقد روى عن هؤلاء جميعا وحدد أماكن روايته عنهم أحيانا. فأما الشيخ أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر المتوفى سنة 648 هـ. فقد أكثر من الرواية عنه، وهو ينص دائما على مكان الرواية عنه فيقول في حديث أورده في التذكرة : "أنبأناه الشيخ المسن الحاج الراوية أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن علي بن

(48) نفسه 6 : 298 - 302 قال "من ذوي قرابة القاضي أبي بكر ابن العربي".
(49) التذكرة 1 : 178.
(50) انظر ترجمته في الوافي بالوفيات 1 : 357 - 358.
(51) ترجمته في الوافي 19 : 140 (مخطوط).
(52) ترجمته ومصادرها في التكملة للمنذري 3 : 566.
(53) ترجمته ومصادرها في الوافي بالوفيات 12 : 251.
(54) ترجمته في التكملة للمنذري 1 : 735.
(55) الوافي بالوفيات 22 : 284.

فتوح بن أبي الحسن القرشي عرف بابن رواح بمسجده بثغر الاسكندرية حماه الله" (56).

ويروي عنه في التذكرة أيضا حديثا آخر يفتتحه بقوله "أخبرنا الشيخ الراوية أبو محمد عبد الوهاب قراءة عليه بثغر الاسكندرية حماه الله، قرئ على الحافظ السلفي وأنا أسمع ..." (57).

وروى عنه كذلك في كتاب التذكار ثلاثة أحاديث بسنده عن الحافظ أبي الطاهر السلفي(58).

كان هذا الشيخ محدث الاسكندرية في وقته، وقد خلف في ذلك شيخه السلفي وعمر قريبا من عمره (59).

وروى القرطبي بالاسكندرية أيضا عن أبي محمد عبد المعطي الاسكندارني المتوفى سنة 638 هـ، سماه ابن عبد الملك من شيوخه، وقد ذكره القرطبي في الجامع عند تفسير قوله تعالى ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ الآية قال : وقد تأول كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطي الاسكندراني رضي الله عنه أن الإمام المحاسبي يرى أن التوبة من أجناس المعاصي لا تصح، وأن الندم على جملتها لا يكفي، بل لا بد أن يتوب من كل فعل بجارحته وكل عقد بقلبه على التعيين، ظنوا ذلك من قوله وليس هذا مراده ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلف إذا عرف حكم أفعاله وعرف المعصية من غيرها صحت منه التوبة من جملة ما عرف، فإنه إن لم يعرف كون فعله الماضي معصية لا يمكنه أن يتوب منه لا على الجملة ولا على التفصيل". وبعد أن أعطى هذا الشيخ

(56) التذكرة 1 : 133.
(57) نفسه 2 : 219.
(58) التذكار : 85، 154.
(59) الوافي 19 : 140 (مخطوط).

بعض الأمثلة لتوضيح هذا المعنى قال : "هذا مراد الإمام (يعني المحاسبي) والذي يدل عليه كلامه لمن تفقده، وما ظنه به الظان من أنه لا يصح الندم إلا على فعل فعل وحركة حركة وسكنة سكنة على التعيين هو من باب تكليف ما لا يطاق الذي لم يقع شرعا وإن جاز عقلا. ويلزم عنه أن يعرف كم جرعة جرعها في شرب الخمر، وكم حركة تحركها في الزنا وكم خطوة مشاها إلى محرم. وهذا ما لا يطيقه أحد ولا تتأتى منه توبة على التفصيل" [60].

كان للشيخ عبد المعطي الاسكندراني صاحب هذا الفهم لكلام المحاسبي رباط مشهور بالاسكندرية، ولعل القرطبي نزل به أول وصوله إليها. وقد نستفيد من تاريخ وفاة هذا الشيخ بمكة المكرمة سنة 638 هـ[62] أن القرطبي وصل إلى الإسكندرية قبل هذا التاريخ.

ومن المحدثين المشارقة الذين روى عنهم القرطبي أبو علي الحسن ابن عمروك الدمشقي المتوفى بمصر سنة 656 هـ [63]، فقد روى عنه في الجامع عند تفسير قوله تعالى : ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ [64] وفي التذكار كذلك [65]. وروى عنه في التذكرة حديثا في الرحمة هذا أول سنده : " أخبرناه عاليا الشيخ الإمام الحافظ المسند أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكري التيمي - من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه - قراءة عليه بالمنصورة [66] بالديار المصرية في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب الفرد سنة سبع وأربعين وستمائة، قال ... ثم أكمل السند

(60) الجامع 4 : 214.
(61) التكملة للمنذري 3 : 566.
(62) نفسه.
(63) الوافي بالوفيات 12 : 228.
(64) الجامع 15 : 141.
(65) التذكار : 188.
(66) من المدن المصرية المشهورة.

وساق الحديث [67]، وذكر أيضا قراءته عليه وروايته عنه في الجامع عند تفسير قوله تعالى ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ قال : "قرأت على الشيخ الإمام المحدث الحافظ أبي علي الحسن بن محمد ابن محمد بن محمد بن عمروك البكري بالجزيرة [68] قبالة المنصورة من الديار المصرية، قال أخبرتنا الحرة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمان بن الحسن الشعري بنيسابور في المرة الأولى ..." ثم يتصل السند إلى أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف : "سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين" [69].

نستفيد من الإشارات الواردة في هذه المرويات أن القرطبي قضى فترة لا بأس بها في الاسكندرية مع بلديه وشيخه المحدث أبي العباس أحمد بن عمر مؤلف كتاب المفهم، ومع الأعلام الذين ذكرناهم. وقد رأينا أنه أخذ بالمنصورة، وربما تم هذا عندما كان متوجها إلى القاهرة، وإن كنا لم نقف على ما يشير إلى وجوده بها، ولسنا ندري هل يمكننا أن نستفيد هذا من الحكاية التي يرويها الصفدي، هي التي نثبتها هنا لطرافتها ودلالتها على شجاعة القرطبي ورباطة جأشه.

قال الصفدي : "أخبرني من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس اليعمري [70] قال : ترافق القرطبي المفسر والشيخ شهاب الدين القرافي [71] في السفر إلى الفيوم[72]. وكل منهما شيخ فنه في

(67) التذكرة 2 : 57.
(68) يبدو أنها جزيرة في النيل قبالة المنصورة.
(69) الجامع 15 : 141.
(70) له ترجمة طويلة في الوافي بالوفيات 1 : 289 - 311.
(71) ترجمته على سبيل المثال في شجرة النور الزكية : 188 - 189.
(72) بلد مشهور بخيراته الزراعية وبحيرته المشهورة.

عصره : القرطبي في التفسير والحديث، والقراقي في المعقولات [73]، فلما دخلاها ارتادا مكانا ينزلانه فيها، فدلا على مكان، فلما أتياه قال لهما إنسان : بالله لا تدخلاه فإنه معمور بالجان، فقال الشيخ شهاب الدين للغلمان : ادخلوا ودعونا من هذا الهذيان، ثم إنهما توجها إلى جامع البلد إلى أن يفرش الغلمان المكان ثم عادا، فلما استقرا بالمكان سمعا صوت تيس من المعز يصيح من داخل الخرستان[74] وكرر ذلك الصياح فامتقع لون القرافي وخارت قواه وبهت، ثم إن الباب فتح وخرج منه رأس تيس وجعل يصيح فذاب القرافي خوفا، وأما القرطبي فإنه قام إلى الرأس وأمسك بقرنيه وجعل يتعوذ ويبسمل ويقرأ : ﴿آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾[75]. ولم يزل كذلك حتى دخل ذلك الغلام ومعه حبل وسكين وقال : سيدي تنح عنه. وجاء إليه وأخرجه واتكأه وذبحه، فقالا له : ما هذا ؟ فقال : لما توجهتما رأيته مع واحد فاسترخصته واشتريته لنذبحه ونأكله وأودعته في هذا الخرستان، فأفاق القرافي من حاله وقال : يا أخي : لا جزاك الله خيرا ما كنت قلت لنا وإلا طارت عقولنا[76]. أو كما قال[77]".

وقد نفهم من هذه الحكاية أن القرطبي دخل مصر القديمة، ولقي الإمام القرافي شيخ علمائها يومئذ، ولعله استدعاه في وقت من أوقات الربيع إلى نزهة في أرض الفيوم كما جرت عادة أهل مصر[78].

---

(73) من أشهر كتبه في ذلك كتاب الفروق والتنقيحات والعقد المنظوم وغيرها.

(74) الخرستان كلمة فارسية ومعناها الموضع الذي تخزن فيه المؤنة.

(75) الآية 59 من سورة يونس.

(76) المسحة العامية بادية على هذه العبارة.

(77) الوافي بالوفيات 2 : 122 - 123.

(78) من عادة المصريين الخروج إلى الفيوم وغيره في موسم يسمونه بشم النسيم.

لا نعرف سبب اختيار القرطبي المقام بمنية ابن خصيب في الصعيد، ولكننا نعرف أن عددا غير قليل من أهل الأندلس والمغرب استقروا اختيارا أو اضطرارا بمختلف مدن الصعيد، وقد وجدنا بعضهم يمتدح هذا البلد، فقد وصفه ابن جبير : "بأنه كبير في الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن" [79].

وقال التجيبي السبتي في مستفاد الرحلة : "وهي مدينة حسنة على شاطئ النيل في الضفة الغربية منه، كثيرة المرافق" [80]. أما ابن بطوطة الذي نزل بها بعد هذين الرحالتين بزمن فقد نوه بكبرها وسعتها، وأشار إلى مدارسها ومشاهدها ومساجدها وزواياها وقال : "وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة، مبنية على شاطئ النيل، وحقيق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل" [81].

ولعل اختيار القرطبي منية ابن خصيب لكونها تذكره بمنية نصر في ضواحي قرطبة التي ربما نشأ فيها، ومهما يكن السبب فإن القرطبي كان زاهدا ميالا إلى التقشف مطرحا للتكلف "يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية" [82].

ورجل هذه حاله ربما تكون الأرياف أنسب له وأليق به، ويبدو أنه كان معجبا بالنيل يطيب له ركوبه والتنزه فيه والتدارس على ظهره، قال في التذكرة : "أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام، مفتي الأنام، أبو الحسن علي بن هبة الله الشافعي بمنية ابن خصيب على ظهر النيل بها قال ..." [83] ثم ذكر السند والحديث.

ويبدو أن القرطبي كان يستأنس ببعض أهل الغرب الذين كانوا

---

(79) رحلة ابن جبير : 28. تحقيق د. حسين نصار.

(80) مستفاد الرحلة : 169.

(81) رحلة ابن بطوطة : 27 - 28.

(82) نفح الطيب 2 : 211 تحقيق د. إحسان عباس.

(83) التذكرة 1 : 133.

بالمنيـة، ومنهم مـحـدث روى عنه في الجـامع عند تفـسـيـر قـوله تعالى:﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ قال : "أنبأنا الشيخ الفقيه أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكومي التلمساني قال : قرئ على الشيخة العالمة فخر النساء شهدة [84] بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري، وذلك بمنزلها بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي [85] قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد بن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المعروف بالطوماري حدثنا الحسين بن فهم قال: سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون – وهو أمير إذ ذاك – مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، فلما تقوض المجلس دعاه المامون فقال له : إسرائيلي ؟ قال : نعم، قال له ؛ أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده، فقال : ديني ودين آبائي وانصرف. قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما، قال : فتكلم على الفقه فأحسن الكلام، فلما تقوض المجلس دعاه المامون وقال : ألست صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى. قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن امتحن هذه الأديان وأنت تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيه ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشتريت مني، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها

---

(84) ترجمة هذه الشيخة المحدثة ومصادرها في الوافي 16 : 190 - 192.

(85) انظر ترجمته في الوافي بالوفيات 16 : 419.

الوراقين فتصفحوها فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي، قال يحيي بن أكتم : فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل، قال : قلت في أي موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ فجعل حفظه إليهم فضاع وقال عز وجل : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع" (86).

وروى عنه حديثا آخر بسنده في التذكرة بدأه بقوله :

و"أنبأناه الشيخ الفقيه أبو القاسم عبد الله بن علي بن خلف الكومي إجازة عن أبيه الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف الكومي قال قرئ على الشيخة الصالحة فخر النساء خديجة بنت أحمد بن الحسن بن عبد الكريم النهرواني (87) في منزلها وأنا حاضر أسمع. قيل لها : أخبركم الشيخ أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد النعالي (88) فأقرت به وقالت نعم. "ثم ساق السند المتصل إلى ربعي بن حراش عن النبي ﷺ قال : خيرت بين الشفاعة ونصف أمتي فاخترت الشفاعة أترونها للمتقين ؟ لا ولكنها للخاطئين المتلوثين" (89).

كان أبو الحسن والد هذا الشيخ من كبار المحدثين رحل من المغرب، وروى الحديث بالاسكندرية، وجاور بمكة، ورحل إلى بغداد، وحصل بها كثيرا ثم رجع إلى مصر وأقام بمنية ابن خصيب ودرس بها إلى أن توفي سنة 599 هـ (90). ويبدو أن ولده أبا القاسم خلفه

(86) الجامع 10 : 5-6.
(87) انظر ترجمة هذه الشيخة المحدثة في الوافي بالوفيات 13 : 297..
(88) ترجمته في الوافي بالوفيات 12 : 339.
(89) التذكرة 2 : 49.
(90) التكملة للمنذري 1 : 460.

في التدريس بالمنية، وكانت بينه وبين القرطبي صحبة طيبة. وقد أخذ القرطبي عنه بعض مرويات والده، ووقف لديه على كتابات لوالده بخطه [91].

أولئك هم الشيوخ الذين أخذ عنهم القرطبي في الأندلس ومصر، ويبدو لمن يتصفح مصنفاته، ولا سيما الجامع والتذكرة، أن تكوينه العلمي المتين حصل في الأندلس، وهو في هذين الكتابين يحيل كثيرا على علمائها كأبي بكر ابن العربي وأبي محمد ابن عطية وأبي الخطاب ابن دحية وأبي الحسن بن بطال وأبي بكر ابن برجان والقاضي عياض وأبي الوليد الباجي وعبد الحق الاشبيلي وأبي بكر الطرطوشي وأبي عبد الله المازري وابن سيدة والسهيلي وغيرهم، ويظهر تكوينه العلمي الأندلسي في ثقافته الفقهية المالكية وكذلك في ثقافته النحوية واللغوية التي تستند إلى الأصول والأمهات ككتاب سيبويه ونحوه.

والقارئ لتفسير القرطبي يصادف أخبارا أندلسية متعددة، ومنها على سبيل المثال ما نجده عند تفسير قوله تعالى : ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ فقد أورد كيف كان الإمام مالك وغيره يقولون فيما لا يعلمون : لا أدري، ويميلون إلى الإنصاف، ثم عقب على ذلك بقوله : "قلت : هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فيه الفساد، وكثر فيه الطغام، وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسي القلب ويورث الضغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى". [92].

وبعد أن أورد خبرين في اعتراف سيدنا عمر وسيدنا علي

(91) التذكرة 2 : 175.
(92) الجامع 1 : 286.

رضي الله عنهما بالخطإ ساق حكاية وقعت لأندلسي مشهور، قال : "وذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ [93] قال : لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان فأخذت على بكر بن حماد [94] حديث مسدد [95]، ثم رحلت إلى بغداد ولقيت الناس، فلما انصرفت عدت إليه لتمام حديث مسدد، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبي ﷺ "إنه قدم عليه قوم من مضر من مجتابي الثمار " فقلت إنما هو مجتابي النمار، هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق، قال لي : بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا ! أو نحو هذا، ثم قال لي : قم بنا إلى ذلك الشيخ - لشيخ كان في المسجد - فإن له بمثل هذا علما، فقمنا إليه فسألناه عن ذلك، فقال : إنما هو مجتابي النمار، كما قلت، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة، جيوبهم أمامهم، والنمار : جمع نمره. فقال بكر بن حماد : وأخذ بأنفه : رغم أنفي للحق ! رغم أنفي للحق ! وانصرف." [96].

ومن هذا أيضا مقارنته بين العمل والعوائد في الأندلس ومصر، قال عند تفسير قوله تعالى : ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ : "في هذه الآية دليل على أن الجيب إنما يكون في الثوب موضع الصدر، وكذلك كانت الجيوب في ثياب السلف رضوان الله عليهم، على ما يصنعه النساء عندنا بالأندلس، وأهل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم" [97]. وقال عند قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ الآية : "في هذه الآية دليل على وجوب ارتفاع المدعو إلى الحاكم لأنه دعي إلى كتاب الله فإن لم يفعل كان مخالفا يتعين عليه الزجر بالأدب

(93) نفح الطيب 2 : 47 - 49.
(94) شجرة النور : 72.
(95) هو مسدّد بن مسرهد. محدّث مشهور.
(96) الجامع 1 : 287 ونفح الطيب 2 : 48 - 49.
(97) الجامع 4 : 50.

على قدر المخالف والمخالف. وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس وبلاد المغرب وليس بالديار المصرية"[98].

إن تربية القرطبي الأندلسية المحافظة دفعته إلى انتقاد بعض العوائد المصرية، فمن ذلك ما نجده عند تفسير قوله تعالى : ﴿وخروا له سجدا﴾ "قلت : هذا الانحناء والتكفي الذي نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض، حتى إن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه، كأنه لا يؤبه به وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة، لاسيما عند التقاء الأمراء والرؤساء، نكبوا عن السنن، وأعرضوا عن السنن" [99].

وقد تندر أحد علماء الأندلس بهذه العادة فقال عندما قام له أبو الوليد ابن رشد الجد :

قام لي السيد الهمام   قاضي قضاة الورى الإمام
فقلت قم بي ولا تقم لي   فقلما يؤكل القيام[100]

ومما انتقده من عوائد المصريين صنيعهم في تشييع الجنازة، قال عند تفسير قوله تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ : "فالحكم الإسراع في المشي لقوله عليه السلام : أسرعوا بالجنازة - الحديث. لا كما يفعله اليوم الجهال في المشي رويدا والوقوف بها المرة بعد المرة وقراءة القرآن بالألحان إلى ما لا يحل ولا يجوز حسب ما يفعله أهل الديار المصرية بموتاهم " [101].

ومن ذلك انتقاده اتخاذ الكتبة من النصارى واليهود، جاء في

---

(98) نفسه.

(99) نفسه 9 : 265.

(100) التكملة : 824.

(101) الجامع : 4 : 300.

تفسيره لقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ الآية : "قلت : وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء"(102).

وقد سبق لأبي بكر الطرطوشي انتقاد هذه الظاهرة (103) التي لم تكن معروفة في الأندلس على عهد المرابطين والموحدين وإن كانت قد عرفت قبل ذلك في زمن الأمويين.

ومن المظاهر التي انتقدها القرطبي رمي المآزر عند دخول الحمام، وهذا كلامه كما ورد في الجامع :

"قلت : أما دخول الحمام في هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدين لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسطوا الحمام رمي مآزرهم حتى يرى الرجل البهي ذو الشيبة قائما منتصبا وسط الحمام وخارجه باديا عن عورته ضاما بين فخذيه ولا أحد يغير عليه ؛ هذا أمر بين الرجال فكيف بين النساء !

لا سيما بالديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المطاهر، التي هي عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"(104).

وعندما زار ابن بطوطة المنية بعد القرطبي بزمن وجد مثل هذه الحال التي انتقدها القرطبي فشكا ذلك إلى قاضي البلد فخر الدين النويري (105) قال : "دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها

---

(102) نفسه 4 : 179.

(103) سراج الملوك : 254 ط. القاهرة 1935.

(104) الجامع 12 : 224.

(105) انظر ترجمته في الدرر الكامنة 2 : 31.

لا يستترون، فعظم ذلك علي، وأتيته فأعلمته بذلك، فأمرني أن لا أبرح، وأمر بإحضار المكترين للحمامات وكتب عليهم العقود أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر فإنهم يؤاخذون على ذلك، فاشتد عليهم أعظم اشتداد" [106].

ومن المظاهر التي انتقدها تبرج النساء قال : «إنّ قلة الحياء قد غلبت عليهن حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرها قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا، نعوذ بالله من سخطه"[107].

وقد لاحظ ما هو أكثر من هذا وقال إنه "مشهور في كثير من الديار المصرية" [108].

إن مثل هذه الانتقادات نجدها لدى عدد من الأندلسيين والمغاربة كالعبدري [109] وابن الحاج الفاسي [110] وغيرهما.

وقد سجل القرطبي في الجامع وفي التذكرة بعض مظاهر الظلم التي شاهدها في مصر، فمن ذلك قوله في الجامع عند تفسير قوله تعالى : ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ : "والبطش يكون باليد وأقله اللكز ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد. والكل مذموم إلا بحق" ثم أضاف ما يلي : "قلت وهذه الأوصاف المذمومة قدصارت في كثير من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق" [111].

(106) رحلة ابن بطوطة : 28 (الطبعة القادرية).

(107) الجامع 3 : 17.

(108) التذكرة 2 : 371.

(109) راجع رحلة العبدري عند كلامه على القاهرة.

(110) راجع المدخل لابن الحاج.

(111) الجامع 3 : 124 والبحرية فرع من المماليك.

ولما روى في التذكرة قول الحسن البصري : "استغفارنا يحتاج إلى استغفار " قال : "هذا قوله في زمانه فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكبا على الظلم حريصا عليه لا يقلع والسبحة في يده زاعما أنه يستغفر من ذنبه، وذلك استهزاء منه واستخفاف"[112].

كان الإمام القرطبي كما وصفه بعضهم " من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة فيما بين توحد وعبادة وتصوف [113]، وقد انعكست هذه الصفات على مصنفاته فهي كلها ذات توجه أخروي، ويبدو لي أن هذا التوجه كان نتيجة المحنة التي حلت بالمسلمين في عصره ولا سيما في الأندلس. غير أن هذا الزاهد العابد له موقف من أدعياء التصوف على اختلاف أشكالهم، فقد انتقدهم مرارا في تفسيره، فمن ذلك ما ورد فيه عند قوله تعالى : ﴿إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض﴾ فقد نقل ما قاله ابن عطية من أن الصوفية تعلقت في القيام والقول بهذه الآية، ثم قال : "قلت : وهذا تعلق غير صحيح ! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم، خائفين من قومهم، وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام، والرقص بالأكمام، وخاصة في هذه الأزمان، عند سماع الأصوات الحسان، من المرد والنسوان، هيهات! بينهما والله ما بين الأرض والسماء[114]" الخ.

وكرر هذا الكلام في موضع آخر فقال : "استدل بعض جهال المتزهدة وطغام المتصوفة بقوله تعالى لأيوب : "اركض برجلك" على جواز الرقص." ثم أورد ما قيل في الرد على هذا [115].

---

(112) التذكرة 1 : 63.

(113) نفح الطيب 2 : 211.

(114) الجامع 10 : 66.

(115) نفسه 15 : 215.

وانتقد بشدة ما كان يدعيه بعض المنتحلين للتصوف من سقوط التكاليف الشرعية عنهم، ونقل عن شيخه القرطبي شارح صحيح مسلم ما يلي : "قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى أن الأحكام الشرعية إنما يحكم بها على العامة وأما الأولياء فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ... قال : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله، ولا يستتاب لأنه إنكار ما علم من الشرائع [116]".

ومن انتقاداته لهذه الفئة من المتصوفة ما جاء في تفسيره : "قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جرى : إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء، فقلت مجيبا له : هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء، والرعاع السفهاء، أو من طاعن في الكتاب والسنة العلياء" [117].

وقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ :

"ولعل جهلة المتصوفة وزنادقة الباطنية يتشبتون بهذه الآية وأمثالها فيقولون : العلم ما وهبه الله ابتداء من غير كسب، والنظر في الكتب والأوراق حجاب، وهذا مردود على ما يأتي بيانه". [118].

وقد اعتبر القرطبي عمل بعض المتصوفة من قبيل المنكر الذي ينبغي النهي عنه وتغييره ومفارقة أهله، وأتى بفتوى لأبي بكر الطرطوشي في هذا الموضوع، قال : "وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله : ما قول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية -وأعلم حرس الله مدته - أنه اجتمع جماعة من رجال يكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد ﷺ ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ويحضرون شيئا يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ افتونا ماجورين، وهذا القول الذي يذكرونه :

(116) نفسه 11 : 40.
(117) نفسه 13 : 14.
(118) نفسه 21.

ياشـــيخ كف عن الذنوب	قـــبل التـــفـــرق والزلل
واعـمل لنفـسك صـالحـا	مـــادام ينفـــعك العـــمل
أمـا الشـبـاب فـقـد مـضى	ومـشـيـب رأسك قـد نزل

وفي مثل هذا ونحوه.

والجـواب - يرحـمك الله - مـذهـب الصـوفـيـة بطالة وجـهـالة وضـلالة، ومـا الإسـلام إلا كـتـاب الله وسنة رسـوله، وأمـا الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل، وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى، وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار.

فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يومن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم.

هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين. وبالله التوفيق."[119].

وقد سمى إحدى هذه الطوائف في معرض كلامه على حديث ورد فيه : "وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلا ولا مالا ..." قال : "لا زبر له أي لا عقل له، ومن لا عقل له ينفك به عن المفاسد ولا ينزجر به عنها فحسبك به ضعفا وخسارة في الدين، وقد قيل في الزبر إنه المال وليس بشيء" ثم قال : "قال شيخنا أبو العباس رضي الله عنه : يعني أن هؤلاء ضعفاء العقول فلا يسعون في تحصيل مصلحة دنيوية ولا فضيلة

(119) نفسه 11 : 237.

نفسية ولا دينية بل يهملون أنفسهم إهمال الأنعام ولا يبالون بما يثبون عليه من الحلال والحرام. وهذه الأوصاف الخبيثة هي أوصاف هذه الطائفة المسماة بالقلندرية"(120).

إن انتقاد القرطبي هؤلاء المتصوفة يشير إلى انتشار التصوف وتعدد طرقه في مصر خلال القرن السابع الهجري، ففي هذا القرن كان أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي وابن الفارض وغيرهم، ومما يلاحظ أن عددا كبيرا من شيوخ التصوف في هذا القرن وفدوا على مصر من الأندلس وبلاد المغرب وكان لهم الأثر الأكبر في نشر التصوف على اختلاف اتجاهاته في أرض الكنانة. ومما يلاحظ أيضا أن عددا ممن انتقدوا الشطحات الصوفية كانوا من الأندلسيين والمغاربة ومنهم المفسر أبو حيان والمفسر القرطبي.

كان القرطبي ورعا زاهدا كما رأينا في وصف بعض من ترجم له، ولكنه لم يكن يذهب إلى حرمان النفس من الطيبات، فقد ذكر عند تفسير قوله تعالى ﴿ ورزقناهم من الطيبات﴾ أن هذه الآية ترد ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ "احرموا أنفسكم طيب الطعام فإنما قوي الشيطان أن يجري في العروق منها" ثم قال القرطبي : "وبه يستدل كثير من الصوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له، لأن القرآن يرده والسنة الثابتة بخلافه على ما تقرر في غير موضع". وبعد أن ساق ما حكاه الغزالي عما كان يقتات به سهل وذو النون وأبو يزيد من ورق النبات وقشور الزرع قال : "وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه، لأن الله تعالى أكرم الآدمي بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن، وأما سويق الشعير فإنه يورث القولنج، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش فإنه ينحرف

(120) التذكرة 2 : 66. وفي دائرة المعارف الاسلامية مادة جيدة عن القلندرية كتبها تحسين يازجي.

مـزاجـه، لأن خـبـز الشـعـيـر بارد مـجـفف والملح يابس قـابض يضـر الدمـاغ والبـصـر، وإذا مـالت النفس إلى مـا يصلحـهـا فـمنعت فقـد قوومت حكمة البارئ سبحانه بردها ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفا للشرع والعقل، ومعلوم أن البدن، مطية الآدمي ومتى لم يرفق بالمطيـة لم تبلغ، روي عن إبراهيم بن أدهـم أنه اشـتـرى زبدا وعسـلا وخبـزا حوارى، فقيل له : هذا كله ؟ فقال : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجـال، وإذا عدمنا صـبرنا صـبر الرجـال، وكان الثـوري يأكل اللحم والعنب والفالوذج ثـم يقوم إلى الصـلاة، ومثل هذا عن السلف كثير" (121).

ومما يدل على أن القرطبي كان يأخذ باليسر في الدين ولا يقول بالتشدد فيه ويقتدي في سلوكه بعمل الصحابة والتابعين ما أورده في آخر كتابه" قمع الحرص بالزهد والقناعة" حول جواز أكل طعام الملوك والأمراء وأخذ جوائزهم.

ونقول - بعد هذه المحاولات المتواضعة في الكشف عن جوانب من حياة الإمـام القرطبي - إننا لم نقف على أي شيء يتعلق بحياته العائلية، فلا ندري هل كان متزوجا أم لا ؟ وهل كان له أولاد أم لا ؟

وإذا لم يكن قد خلف ذرية فإنه ترك تراثا علميا إسلاميا كبيرا، ولو لم يكن له إلا تفسيره المبارك لكفاه، وفيه يقول الصفدي : "وقد سارت بتفسيره الركبان، وهو تفسير عظيم في بابه"، ويقول فيه ابن فرحون : "هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا"، ووصفه بعضهم بأنه "لا نظير له، فضله أشياخنا المتأخرون على أكثر ما بالأيدي من التفاسير " (122).

يتميز هذا التفسير الجليل بمقدمته الحافلة، وقد نشرها بعضهم على حدة دون أن ينبه على أنها مقدمة الجامع، بل إنه وضع لها

(121) الجامع : 10 : 295-296.

(122) نفح الطيب. 2 : 210 - 211.

عنوانا هو" الوجين، في فضائل الكتاب العزيز" وهذا يضلل غير العارفين فيحسبون أن الأمر يتعلق بكتاب مستقل.

إن تفسير الإمام القرطبي هو حلقة في سلسلة التفاسير الأندلسية، ومنها تفاسير ابن صمادح وابن عطية وابن العربي وابن النعمة وأبي حيان معاصر القرطبي وشبيهه في التغرب والإقامة بمصر، وبين تفسيره وتفسير القرطبي شيء من الشبه ولا سيما عنايتهما بالقراءات ومسائل العربية.

وقد لقي تفسير القرطبي في وقتنا إقبالا كبيرا، وانتشرت بين الناس طبعاته وكتبت فيه دراسات ورسائل جامعية.

على أنه لا يخلو من بعض المآخذ، ومنها وجود بعض الإسرائيليات فيه، ولكنها قليلة لا تؤثر في شيء على الطابع السني السليم الغالب فيه. وشخصية القرطبي واضحة وحاضرة في تفسيره وما أكثر ما يعقب على كلام غيره بكلمة قلت، ومع تقديره لبعض الفقهاء والمفسرين الأندلسيين قبله فإنه يعقب على أقوالهم أحيانا، ومن هؤلاء أبو بكر ابن العربي وابن عطية. وهو يبدو معجبا بآراء شيخه أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي وقد أورد عددا منها في تفسيره. ومما يتميز به تفسير القرطبي كثرة الشواهد الشعرية والمنظومات التعليمية، وقد نستغرب بعضها كالاستشهاد بقول أبي نواس :

يا دير حنة من ذات الأكيراح

من يصح عنك فإني لست بالصاح

وكإشارته إلى عادة الشراب الذين يشربون ويتحدثون على الشراب، واستشهاده في هذا المعنى بقول بعضهم :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام [123].

(123) الجامع 4 : 65 و15 : 81. والبيت لأحد شعراء اليتيمة 1 : 103.

وللقرطبي كتاب يتصل اتصالا مباشرا بكتابه الجامع في التفسير وأعني به كتاب "التذكار، في أفضل الأذكار" وهو مطبوع ومحقق بعناية العالم المغربي المحدث أحمد بن الصديق. وأفضل الأذكار في عنوان هذا الكتاب هو القرآن الكريم، ولهذا فإن جميع فصول الكتاب تتعلق بعلوم القرآن وفضائله وآداب قراءته. قال في مقدمته إنه "يحتوي على فضل القرآن وقارئه ومستمعه والعامل به وحرمته وحرمة القرآن وكيفية تلاوته والبكاء عنده إلى غير ذلك".

ومن أشهر كتب الإمام القرطبي كتاب " التذكرة، في أحوال الموتى والآخرة". وهو مطبوع، وقد سار فيه على مهيع عبد الحق الاشبيلي في العاقبة وأبي الخطاب ابن دحية في الإنذارات، وهذا الأخير مفقود ولكن القرطبي ينقل عنه، ومن هذا النمط أيضا كتاب الترغيب والترهيب للمنذري.

ويبدو أن من البواعث على أمثال هذه المؤلفات ما كان حينئذ من أحداث مخيفة، ومنها هجمات الإفرنج والتتر وغير ذلك مما جعل هؤلاء المومنين يوجهون أنظارهم إلى الآخرة وينتظرون قيام الساعة. وقد نقل القرطبي في التذكرة كلام ابن دحية في أفعال التتر الفظيعة، وتكلم هو عليهم في التفسير في آية يا جوج وماجوج، ثم ذكر خروج القائد قطز إليهم وانتصاره عليهم.

ولعل أبرز مواضيع كتاب التذكرة هو ما يروى في الفتن والملاحم التي تقع في آخر الزمان، وما قيل في أمارات الساعة وأشراطها، من ظهور المهدي وخروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام. وقد كانت أحوال المسلمين على عهد القرطبي في المشرق والمغرب -كما قلنا- من أسباب إقباله على هذه المواضيع وتتبعه لما ورد فيها من مرويات وجفريات، وكان لما وقع له ولأهل الأندلس من محن في أنفسهم وجلاء عن بلدانهم أثر في ذلك أيضا، ولعله وغيره

من الأندلسيين الذين أخرجوا من ديارهم وجدوا بعض ما يعزيهم في الجفريات التي تتنبأ بفتح القسطنطينية وروما وعودة الإسلام إلى الأندلس في آخر الزمان. ومع أن القرطبي أكثر من جلب الجفريات وتساهل في نسبتها إلى الرسول ﷺ، كما في الحديث الذي قال إنه روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ -وهو أنه إذا كانت سنة تسع وتسعين وخمسمائة يخرج المهدي ويكون كذا وكذا - ولكنه لاحظ أنه لم يقع شيء مما ورد في هذا الحديث خلال التاريخ المذكور وقال: "والذي ينبغي أن يقال به في هذا الباب أن ما أخبر به النبي ﷺ من الفتن والكوائن أن ذلك يكون، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر، وإنما ذلك كوقت قيام الساعة فلا يعلم أحد أي سنة هي ولا أي شهر." (124).

وعلاوة على ما ذكر فإن كتاب التذكرة مليء أيضا بالفوائد المختلفة، وفيه أشعار زهدية لمنذر بن سعيد البلوطي وغيره، وفيه نقول مفيدة من كتاب مرج البحرين لابن دحية ؛ وقد كان القرطبي كابن دحية من شيعة آل البيت، ولهذا عقد بابا ذكر فيه ما جاء في مقتل الحسين رضي الله عنه ونقل كلام ابن دحية، وصرح برأيه في بني أمية قائلا : "وبالجملة فبنو أمية قابلوا وصية النبي ﷺ في أهل بيته وأمته بالمخالفة والعقوق، فسفكوا دماءهم، وسبوا نساءهم، وأسروا صغارهم، وخربوا ديارهم، وجحدوا فضلهم وشرفهم، واستباحوا لعنهم وشتمهم، فخالفوا رسول الله ﷺ في وصيته، وقابلوه بنقيض مقصوده وأمنيته، فواخجلتهم إذا وقفوا بين يديه، ووافضيحتم يوم يعرضون عليه" (125).

ومن مؤلفات القرطبي كتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة"، ذكره في سورة الذاريات عند تفسير

(124) التذكرة 2 : 359.

(125) نفسه 2 : 290.

قوله تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ [126]. وذكره غيره ونقلوا عنه، ومنهم المقري في نفح الطيب [127]، يقول القرطبي في مقدمته : "وبعد، فإن جماعة من العلماء جمعوا في فضل الكفاف والقناعة وذم المسألة وما يحرم منها ويكره ويجوز، كابن أبي الدنيا والخرائطي وأبي العباس أحمد بن محمد بن مسروق الطوسي وأبي بكر أحمد بن محمد بن إسحاق بن السني رحمهم الله تعالى، وأكملها ما لابن أبي الدنيا في ذلك، فرأيت أن أجمع في ذلك كتابا يكون جامعا مهذبا ... يزيد على معانيها، ويربي على ما فيها، جعلته أربعين بابا [وضمنت] كل باب الحديث والحديثين والثلاثة، ثم عقبت ذلك بالتفسير والتبيان لتكمل فائدته، وتعظم منفعته" [128].

والقرطبي في هذا الكتاب – كما في الجامع والتذكرة – يلتفت بين حين وحين إلى واقع الحال في وقته، قال في الباب الثاني عشر في إباحة الأخذ ممن أعطي مالا من غير إسراف ولا سؤال : "قلت فهذا حكم الفقراء في أخذ النوال، وقد انعكس الحال في هذه الأزمان، فتراهم ومن يظن بهم العلم يلحفون، وإلى الظلمة والفساق يترددون، وعندهم ياكلون، ومنهم يقبلون، ساء ما يحكمون، وبئس ما يتناولون "يحسبون أنهم يحسنون صنعا" وهو الخاسرون، زين لهم سوء أعمالهم فهم يعمهون" [129].

ويرد كذلك في هذا الكتاب على بعض الصوفية، فيقول في باب إعطاء الفضل وبيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى :

"وقد عكست بعض مشايخ التصوف أحاديث هذا الباب مع صحتها، بأن قالوا : اليد العليا هي يد السائل، واليد السفلى هي يد

---

(126) الجامع..
(127) نفح الطيب 3 : 235.
(128) قمع الحرص.
(129) نفسه.

المعطي، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطيها للسائل. فصارت يد الفقير أعلى في هذا المعنى، وهذا تعسف في التأويل ورد لنص الحديث، بل يد المعطي هي العليا، وحديث أبي داود نص، وقد قيل : إن فائدة قوله : "ويد السائل السفلى " الزجر عن مسألة الخلق، والرجوع إلى الحق، وأن يتعفف المومن عن سؤال الخلق صيانة لعزائمه، وصبرا تحت حكم سيده في فقره فتعلو يده ولا تسفل. وهذا حسن عال جدا فتأمله" [130].

ولعل الخلاصة التي نخرج بها من هذا الكتاب هي قول القرطبي : "قد بان لك يا أخي مما تقدم بهذا الباب وبما تقدم من الأبواب أنه ليس من الزهد ترك المباحات، ولا تحريم الطيبات" [131]. وقد عزز هذه الخلاصة بمسألة جعلها كالتتمة للكتاب، وتوجد في ملاحق هذه الدراسة.

ومن مؤلفات القرطبي أيضا "الأسنى، في أسماء الله الحسنى"، وقد أشار إليه مرارا في كتابه الجامع في التفسير [132]، وهو مسبوق في هذا الموضوع بالإمام الغزالي وتلميذه أبي بكر ابن العربي، وما يزال كتاب الأسنى مخطوطا، وتوجد منه نسخة في مكتبة عارف حكمت (88 أدعية).

ومن مؤلفاته كتاب "المقتبس، في شرح موطأ مالك بن أنس " قال في الجامع عند ذكر حديث رواه الإمام مالك في رمي الجمار : "وقد ذكرناه في المقتبس، في شرح موطأ مالك بن أنس" [133]، ولابن العربي كتاب القبس، والقرطبي ينقل عنه.

ومن مؤلفاته كذلك كتاب "منهج العباد، ومحجة السالكين

---

(130) نفسه.

(131) نفسه.

(132) الجامع 15 : 266.

(133) نفسه 3 : 9.

والزهاد،" سماه عند تفسير قوله تعالى : ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ قال في معرض مناقشته لكلام صاحب قوت القلوب في تفضيل الفقير على الغني : "وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب منهج العباد، ومحجة السالكين والزهاد" [134].

وقد نسب بروكلمان إلى القرطبي كتاب "الإعلام، بما في دين النصارى من الفساد والأوهام"، وتبعه في هذا بعض الدارسين، والصواب أن الكتاب لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي شيخ مفسّرنا، وقد نسبه المذكور إلى نفسه وأحال عليه مراراً في كتابه "المفهم، لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم" [135].

ويمكن القول بأن هذه الأعمال في مجملها ذات وجهة أخروية، ولعنا نلمس هذه الوجهة في جميع آثار هذا الإمام القرطبي، فهي مرتبطة بالقرآن المجيد والحديث الشريف ولا تكاد تخرج عن الأغراض الدينية والأهداف الأخروية.

ولا شك أن ثقافته في القراءات والنحو واللغة كانت تؤهله للتأليف في هذه العلوم على غرار معاصره أبي حيان، ولعل القرطبي لما رأى ما رأى من ضياع الأندلس آثر الانزواء في المنية وأقبل على خدمة كتاب الله وسنة رسوله، ولا شك أن إنجازه في مهاجره تفسير القرآن الكريم وما سواه كان من فضل الله عليه وعونه له. وقد كان لمصر التي أصبحت في هذا القرن السابع وما تلاه مهبط أهل العلم من المغرب والمشرق الفضل العظيم في إيوائهم والترحيب بهم وتوفير الأمن لهم. وظهر أثر هذا غيمَ دونه أصحاب الحوليات والطبقات.

---

(134) نفسه 15 : 216.

(135) توجد طبعتان من هذا الكتاب.

مـــلاحـــق

1 – قال القرطبي عند تفسير قوله تعالى : ﴿إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ :

"فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعل العوام، والمبتدعة الطغام، من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع : لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله والخوف منه والتعظيم لجلاله ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله، ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال : ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ فهذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم، فمن كان مستنا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون، فهو من أخسهم حالا، والجنون فنون".

الجامع 7 : 366.

2 - قال القرطبي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء﴾ : "قلت ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن، وما كان عليه السلف من السنن، فيقول : وقع في خاطري كذا أو أخبرني قلبي بكذا فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار، وخلوها من الأغيار، فتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص. وقد جاء فيما ينقلون، استفت قلبك وإن أفتاك المفتون، ويستدلون على هذا بالخضر وأنه استغنى بما تجلى من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم.

وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، فإنه يلزم منه هدم الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ".

الجامع 7 : 39.

3 – جاء في آخر كتاب قمع الحرص للقرطبي ما يلي :

"روينا أن الإمام أبا عمر ابن عبد البر رضي الله تعالى عنه بلغه وهو بشاطبة أن أقواما عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه فقال :

قل لمن ينكر أكلي لطعـام الأمراء

أنت من جهلك هذا في محل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين، من الصحابة والتابعين، وأئمة الفتوى من المسلمين، من السلف الماضين، هو ملاك الدين ؛ فقد كان زيد بن ثابت – وكان من الراسخين في العلم – يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما – مع ورعه وفضله – يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد ويأكل طعامه ويقبل جوائزه، وقال عبد الله بن مسعود – وكان قد ملئ علما – لرجل سأله، فقال : إن لي جارا يعمل بالربا ولا يجتنب في مكسبه الحرام يدعوني إلى طعامه أفأجيبه ؟ قال : نعم لك المهنأ وعليه المأثم ما لم تعلم الشيء بعينه حراما. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه حين سئل عن جوائز السلاطين : لحم ظبي ذكي. وكان الشعبي -وهو من كبار التابعين وعلمائهم – يؤدب بني عبد الملك بن مروان ويقبل جوائزه ويأكل طعامه، وكان إبراهيم النخعي وسائر علماء الكوفة والحسن البصري مع زهده وورعه وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبد الرحمان وأبان بن عثمان والفقهاء السبعة بالمدينة – حاشا سعيد بن المسيب – يقبلون جوائز السلطان، وكان ابن شهاب يقبلها ويتقلب في جوائزهم، وكانت أكثر كسبه، وكذلك أبو الزناد، وكان مالك وأبو يوسف والشافعي وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء، وكان سفيان

الثوري – مع ورعه وفضله – يقول : جوائز السلطان أحب إلي من صلة الإخوان ؛ لأن الإخوان يمنون والسلطان لا يمن، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير، وقد جمع الناس فيه أبوابا ولأحمد بن خالد فقيه الأندلس وعالمها في ذلك كتاب حمله على وضعه وجمعه طعن أهل بلده عليه في قبوله جوائز عبد الرحمن الناصر، إذ نقله إلى المدينة بقرطبة وأسكنه دارا من دور الجامع قربه وأجرى عليه الرزق والطعام والإدام والناض، وله ولمثله في بيت المال حظ ".

قمع الحرص بالزهد
والقناعة : 136 - 138
ط. بيروت، 1994.

4 – ورد في كتاب التذكرة للقرطبي هذه العظة :

"يا هذا، أين الذي جمعته من الأموال، وأعددته للشدائد والأهوال ؟ لقد أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفرا، وبدلت من بعد غناك وعزك ذلا وفقرا، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره، ويا من سلب من أهله ودياره ؟ ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد، وأقل اهتمامك لحمل الزاد، إلى سفرك البعيد، وموقفك الصعب الشديد أو ما علمت يا مغرور أن لا بد من الارتحال، إلى يوم شديد الأهوال، وليس ينفعك ثم قيل ولا قال، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان، ما بطشت اليدان، ومست القدمان، ونطق به اللسان، وعملت الجوارح والأركان، فإن رحمك فإلى الجنان، وإن كانت الأخرى فإلى النيران. يا غافلا عن هذه الأحوال، إلى كم هذه الغفلة والتوان ؟ أتحسب أن الأمر صغير، وتزعم أن الخطب يسير، وتظن أن سينفعك حالك، إذا آن ارتحالك، أو ينقذك مالك، حين توبقك أعمالك، أو يغني عنك ندمك، إذا زلت بك قدمك، أو يعطف عليك معشرك، حين يضمك محشرك، كلا والله ساء ما تتوهم، ولا بد لك أن ستعلم، لا بالكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعظات تستمع، ولا بالوعيد ترتدع، دأبك أن تنقلب مع الأهواء، وتخبط خبط عشواء، يعجبك التكثر بما لديك، ولا تذكر ما بين يديك. يا نائما في عمله وفي خبطة يقظان، إلى كم هذه الغفلة والتوان ؟ أتزعم أن ستترك سدى، وأن لا تحاسب غدا، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا، أو يميز بين الأسد والرشا ؟ كلا والله لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون، ولا ينفع أهل القبور، إلا العمل المبرور، فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ونهى النفس عن الهوى، وعلم أن الفائز من ارعوى، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى﴾ فانتبه من هذه

الرقدة، واجعل العمل الصالح لك عدة، ولا تتمن منازل الأبرار، وأنت مقيم على الأوزار، عامل بعمل الفجار، بل أكثر من الأعمال الصالحات، وراقب الله في الخلوات، رب الأرض والسماوات، ولا يغرنك الأمل، فتزهد عن العمل، أوما سمعت الرسول حين يقول، لما جلس على القبور : يا إخواني لمثل هذا فأعدوا، أوما سمعت الذي خلقك فسواك يقول : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾".

التذكرة، بأحوال الموتى
وأمور الآخرة 1 : 113.

5 – نقل القرطبي النبذة التالية حول التتر عن ابن دحية معاصرهم :

"قال الحافظ ابن دحية رضي الله عنه : خرج في جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة جيش من الترك يقال له الططر، عظم في قتاله الخطب والخطر، وقضي له من قتل النفوس المومنة الوطر، ولم تهتد إلى دفعه بالحيل الفطر، فقتلوا من وراء النهر وما دونه من جميع البلاد حتى بلاد خراسان، ومحوا رسوم ملك بني ساسان. وهذا الجيش ممن يكفر بالرحمان، ويرى أن الخالق المصور هو النيران، وملكهم يعرف بخان خانقان، وقد خربوا بيوت مدينة نشاور وأطلقوا فيها النيران، وخار عنهم من أهل خوارزم كل إنسان، ولم يبق منهم إلا من اختبأ في المغارات والكهفان، حتى وصلوا إليها وقتلوا وسبوا وخربوا البنيان، وأطلقوا الماء في المدينة من نهر جيحان، فغرق فيها مباني الذرى والأركان، ثم صيروا المشهد الرضوي بطوس أرضا بعد أن كان، وقطعوا ما أمر الله عز وجل به أن يوصل من الدين بأخسر الأديان، إلى أن وصلوا بلاد قهستان، فخربوا مدينة الري وقزوين وأبهر وزنجان، ومدينة أردبيل ومدينة مراغة كرسي بلاد أذربيجان، واستأصلوا شافة من في هذه البلاد من العلماء والأعيان، واستباحوا قتل النساء وذبح الولدان، ثم وصلوا إلى العراق الثاني وأعظم مدنه مدينة أصبهان، ودور سورها أربعون ألف ذراع في غاية الارتفاع والإتقان، وأهلها مشتغلون بعلم الحديث فحفظهم الله بهذا الشأن، وكف كف الكفر عنهم بأيمان الإيمان، وأنزل عليهم مواد التأييد والإحسان، فتلقوهم بصدور هي في الحقيقة صدور الشجعان، وحققوا الخبر بأنها بلد الفرسان، واجتمع فيها مائة ألف إنسان، فخرجوا إليهم كأسد ولكن غاباتها

عوامل الخرصان، وقد لبسوا البياض كثغور الأقحوان، وعليهم دروع فضفاضة في صفاء الغدران، وهيئت للمجاهدين درجات الجنان، وأعدت للكافرين دركات النيران، وبرز إلى الططر القتل في مضاجعهم، وساقهم القدر المحتوم إلى مصارعهم، فمرقوا عن أصبهان مروق السهم من الرمي، وأنشدوا : "أتى الوادي فطم على القرى"، ففروا منهم فرار الشيطان يوم بدر له خصاص، ورأوا أنهم إن وقفوا لم يكن لهم من الهلاك محاص، وواصلوا السير بالسرى، وهدوا من همدان الوهاد والذرى، بعد أن قامت الحرب على ساق، والأرواح في مساق، من ذبح وضرب الأعناق، وصعدوا جبل اورند فقتلوا من فيه من جموع صلحاء المسلمين، وخربوا ما فيه من الجنات والبساتين، وانتهكوا منهم ومن نسائهم حرمات الدين، وكانت استطالتهم على مقدار ثلثي بلاد الشرق الأعلى وقتلوا فيها من الخلائق ما لا يحصى.

وقتلوا في العراق الثاني وربطوا خيولهم في سواري المساجد والجوامع، كما جاء في الحديث المنذر بخروجهم عن الشارع الجامع، وأوغلوا في بلاد الشرق أي إيغال، وقادوا الجيوش إليها مقادة أبي رغال، ... وقطعوا السبل وأخافوها، وجاسوا خلال الديار وطافوها، وملأوا قلوب المومنين رعبا، وسحبوا ذيل الغلبة على تلك البلاد سحبا، وحكموا سيوفهم في رقاب أهلها، وأطلقوا يد التخريب في وعرها وسهلها، ولا شك أنهم المنذر بهم في الحديث وأن لهم ثلاث خرجات يصطلمون في الأخيرة منها".

وقد عقب القرطبي على كلام ابن دحية بما يلي : "قال المؤلف رحمه الله : كملت بحمد الله خرجاتهم ولم يبق إلا قتالهم وقتلهم، فقد خرجوا على العراق الأول والثاني كما ذكرناه وخرجوا في هذا الوقت على العراق الثالث وهو بغداد، وما اتصل بها من البلاد،

وقتلوا جميع من كان فيها من الملوك والعلماء والفضلاء والعباد وحاصروا ميافارقين، واستباحوا جميع من فيها من الملوك والمسلمين، وعبروا الفرات إلى أن وصلوا إلى مدينة حلب فخربوها وقتلوا من فيها إلى أن تركوها خالية يبابا، ثم أوغلوا إلى أن ملكوا جميع الشام، في مدة يسيرة من الأيام، وفلقوا بسيوفهم الرؤوس والهام، وداخل رعبهم الديار المصرية، ولم يبق إلا اللحوق بالدار الأخروية، فخرج إليهم من مصر الملك المظفر الملقب بقطز رضي الله عنه بجميع من معه من العسكر، وقد بلغت القلوب الحناجر، وامتلأت الأنفس بعزيمة صادقة ونية خالصة إلى أن التقوا بعين جالوت، فكان له عليهم من النصر والظفر كما كان لطالوت، فقتل منهم جمع كثير، وعدد غزير، وانجلوا عن الشام من ساعتهم ورجع جميعه كما كان إلى الإسلام وعبروا الفرات منهزمين، ورأوا ما لم يشاهدوه منذ زمان ولا حين، وراحوا خائبين خاسرين مدحورين أذلاء صاغرين".

التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة

2 : 322 - 323.